وحدة مسيرة الحقّ

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٣١م

في مثل هذه الأيام من شهر شعبان الأغرّ من السنة التاسعة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، حصل درسٌ ربَّانيٌّ كبيرٌ وحدثٌ جليل، وهو آخر غزوةٍ غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين توجّه إلى تبوك، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رجب، وعاد إلى المدينة المنورة في شهر رمضان، وأمضى شعبان كلّه في تبوك، ودرسُ تبوك درسٌ لا ينبغي أن نتجاوزه، فلئن كنّا نخصص بعضًا من الأوقات لفهم دروس الإسراء والمعراج، ولدروس بدر، ولدروس فتح مكة... فإن درس تبوك يلخِّص في مضموناته أكثر الدروس.

فقد كان قبيل انتقال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى في آخر تجمُّع كبير، حيث خرج ينشر الحقّ والهداية، ولم يكن درسًا من دروس المدينة المنورة، لكنه كان انطلاقة وحركةً تجمَّع فيها ما يقرب من ثلاثين ألفًا، وقد خصَّص القرآن الكريم لهذا الدرس آياتٍ كثيرةً، فرأيت أنه من المستحسن أن نقف بين يدي هذا الدرس في مناسبته الزمانية التي يغفل عنها أكثر المسلمين.

وكان صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إذا أراد أن يخرج من المدينة المنورة – لاسيما في غزواته العسكرية – لم يكن يحدِّد للمسلمين الوجهة، لكنه في هذه المرّة حدَّد الوجهة: إنها تبوك بوابة الشام، والسفر إليها طويل، والعدوُّ الذي يواجهونه فيها كثير، فقد كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يريد من هذه الغزوة ردعَ الرومِ ونصارى العرب، ومن هذا تعلم عدد العدوّ الذي كان من المحتمل أن يلتحم مع جيش تبوك، مع جيش النبي صلى الله عليه وسلم الذي سماه الله تبارك وتعالى جيش العسرة.

نعم، لم تكن المؤن كافية لثلاثين ألفًا، يتحركون من المدينة إلى تبوك، ولم تكن الرواحل كافية لثلاثين ألفًا في تلك الغزوة المباركة، حتى بلغ بهم من العسرة في جيش العسرة ذاك، أنهم ربما تعاقبوا على مضغ التمرة الواحدة، فكان أحدهم يمضغها ثم يعيدها إلى صاحبه، فيتعاقبون على مضغ تمرة، ووصل بهم الأمر من العطش أنهم صاروا يبحثون عن البلل ويستخرجونه من أرواث الإبل...

الوقت من السنة الشمسية أما الزمان من السنة القمرية؛ فالخروج كان في رجب، والمكث في شعبان، والعودة في رمضان، وأما ما يوافق ذلك من السنة الشمسية فقد كان في أحرِّ أيام الصيف، حيث الثمار دنت، والظلال الكثيرة في المدينة المنورة تجذب ساكنيها إليها، واقترب موسم بيع الثمار أو بدأ، وسيجنون من وراء ذلك الموسم ربحًا كبيرًا...

إذًا، المغريات التي تجذب إلى الأرض كبيرة، والوجهة التي يتحركون إليها شاقّةٌ ومريعة وبعيدة، وأنـــزل الله سبحانه وتعالى في ذلك الحدث آيات – بعد أن رجع صلى الله عليه وسلم من تلك الغزوة– فقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ، ما كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١١٧–١٢١] وكان الخطاب في هذه الآيات شاملاً.

– أما قوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ فإنه دالٌّ على شدّة توجيه التأنيب إلى من تخلّف، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وقَبِلَ منه عذرًا قدَّمه، ووكل سرّه إلى الله.

وكأنه تبارك وتعالى يُظهر في هذا النص عظمة رحمة النبي صلى الله عليه وسلم الذي يرى بأمِّ عينيه من يتخلَّف عن ذلك الأمر العظيم، ويأتي بعذرٍ كاذب، ويقبل رسول الله منه علانيته، والموطنُ موطنُ تقريع، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأظهر الله تبارك وتعالى في هذا النص بواطن من اعتذر، وقال له: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٢]

هذا ما يتعلق بتوبة الله تبارك وتعالى على النبيّ، وأما توبته تبارك وتعالى على أصحابه من المهاجرين والأنصار، فلأنَّ قلوب بعضهم حدّثت أصحابها بالتخلُّف، فتخلَّف بعضهم، واكتفى بعضهم بحديث القلب، فغفر الله سبحانه وتعالى لمن حدَّثته نفسُه فجاهدها وخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان لمن لم يخرج مع صدق إيمانه – وهم الثلاثة الذين ذُكروا في هذا النصّ – درسٌ قبل العفو والمغفرة، اجتمعت فيه كلُّ وسائل التأديب في خمسين يومًا.

– ثم قال: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ فإذا حُمِلت "اتَّبعوه" على الموافقة في جيش تبوك فإنها تنحصر فيمن خرج، وإذا اتَّسعت مساحتها لتشمل الثلاثة الذين جهزوا أنفسهم للخروج ثم تقاعسوا في آخر لحظة فيُحمل الأمر على الابتداء، لأن الثلاثة الذين غفر لهم تجهزوا للخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنهم لم يخرجوا وركنوا إلى راحة النفس.

وسمّى الله سبحانه وتعالى شهرًا ونصفًا: ساعةَ عُسرة، وهو بهذا يريد أن ينبِّهنا إلى أن ما تتحمله من الشدة والمشقة – مهما كان شديدًا – لا يعدو كونه في حياتك ساعة، فلا تتخلَّف عن نصر الله ورسوله فيه.

لقد سمَّى الله تبارك وتعالى زمن الغزوة منذ بدايتها إلى نهايتها ساعة العسرة، و لم يلقَ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشدة كما لقوه في مدة تلك الغزوة.

– ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من بعد ما همَّ فريقٌ منهم بالتخلُّف وعصيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

– ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي وفَّقهم بالتوبة عن ذلك الميل النفسانيّ، فخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وصبحه وسلم.

– ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ فجهزوا أنفسهم للخروج، وتقاعسوا في آخر لحظة، وكانوا أصحاب إيمان، لكنَّ نفوسهم غلبتهم، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي، ثلاثةٌ من شيوخ أصحاب رسول الله، لكن التأديب كان بوحيٍ من الله تبارك وتعالى.

اعترفوا بعد أن رجع النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: لا عذر لنا يا رسول الله.

وما يزيد على الثمانين من المنافقين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعتذرون، فقَبِلَ علانيتهم، أما هؤلاء الثلاثة فقالوا: لا عذر لنا يا رسول الله عن التخلف عنك أبدًا، قال: **(أما هؤلاء فقد صدقوا)**.

وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم المقاطعة الكبرى، فلا يكلمهم أحد، ولا ينظر إليهم أحد، ولا يعاملهم أحد، وكانوا يحضرون الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يردُّ عليهم السلام، وكان الواحد منهم يأتي إلى قريبه وابن عمه يسلم عليه فلا يرد عليه السلام، وكانوا يمضون فإذا دخلوا السوق أعرض الناس عنهم...

وبعد أربعين يومًا من المقاطعة الشديدة – التي أريدَ منها تشخيصُ المرض قبل علاجه – أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى نسائهم، وأمر أولئك الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم، فوصلت المقاطعة إلى درجة مفاصلةٍ بين الزوجة وزوجها، حتى اكتمل عدد الأيام خمسين قبل أن تنـــزل التوبة بالوحي من الله تبارك وتعالى على رسوله.

– وهذا الحال هو الموصوف بقوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ كانوا يمضون الوقت في البكاء، منطرحين في أعتاب الله، نادمين...

خمسون يومًا وهم على هذا الحال، حتى لقد مرَّت بكعب بن مالك فتنةٌ زائدة حين أرسل إليه ملك نصارى العرب، ملك قبيلة غسان، كتابًا يقول فيه: "إن صاحبك قد جفاك، فارحل إلينا نواسيك".

ملكٌ من ملوك العرب يرسل إليه: ما الذي يبقيك وقد جفاك صاحبك؟ فيمزِّق الكتاب ويلقيه في النار ثابتًا لا يتلفت، ينتظر أمر الله تبارك وتعالى فيه.

– وبعد خمسين يومًا نـــزلت البشارة بالتوبة: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي قبل توبتهم، ووفَّقهم للثبات على التوبة.

– ﴿لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ عندها خرجوا عن أكثر أموالهم لله شكرًا.

ثم انتقل من الدرس الخاصِّ الذي يتحدث عن الأشخاص: عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن المهاجرين، وعن الأنصار، وعن الثلاثة... إلى خلاصة الدرس، الذي ينبغي للأمة أن تستفيده، وذلك بقوله:

– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ إنها خلاصة الدرس، أي احرصوا يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم على **وحدة مسيرة الحقّ**، واحرصوا يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تكونوا في تماسُكٍ وصفوفٍ مرصوصة ليس فيها شتاتٌ ولا تقاعسٌ ولا تخلُّفٌ ولا تقديمٌ لراحة النفس على رسالة الله تبارك وتعالى..

فليتكاتف التجمُّع الإيمانيُّ، وليلزم الأفراد ذلك التجمع الصادق.

التجمع الصادق هو التجمع الذي صدق في مقصوده، فلم يكن مقصودُه دنيا يصيبها، ولا الشهرة ولا ثناء الخلق، ولا تحصيل المنافع العاجلة... إنما كان يريد الله.

هذا هو التجمُّع الصادق، فإن ظفرت به فالزمه، ولا تحِد عنه، فإنك حينما تحيد عنه تضعُ نفسك:

* إما في صفِّ أولئك الذين اعتذروا عذرًا كاذبًا.

* أو في صفِّ الذين قالوا: لا عذر لنا، فاستحقُّوا التأديب.

* أو في صفِّ من عاش الصراع مع نفسه.

تكون من الصنف الثالث إن أنت صرعت نفسك، أما إذا تخلَّصَتْ نفسُك من رعوناتها، فكنت صدِّيقيًّا، تحمل أمرك على الموافقة لله ورسوله، عندها ستكون من الصنف المجتبى الذي يلتحق بالنبي صلى الله عليه وسلم، وتكون ممن يُحسَب عليه.

– وبعد المحطة التي ذكر فيها الدرس ملخَّصًا، قدَّم خطابًا تفصيليًّا للمستقبل، يؤسس فيه للتماسك والثبات، فقال: ﴿ما كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾

لماذا يقدِّمون راحة نفوسهم ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحريصُ عليهم أمامهم؟

– ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ تحمُّلٌ للعطش.

– ﴿وَلاَ نَصَبٌ﴾ ولا أيُّ نوعٍ من أنواع التعب.

– ﴿وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ ولا جوعٌ يجوعونه في سبيل الله.

– ﴿وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً﴾ في الجهاد في سبيل الله.

– ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهذا هو حال أهل الإحسان، وإلا فالأمر دعاوي، وما أكثر الدعاوي!

الإحسان ليس مجرَّد أحوال، ولا عبارات فيها من الرقائق واللطائف، إنما معه سلوك يُصدِّق تلك الأحوال.

نقل صاحب (حلية الأولياء) الأصفهانيُّ أبو نعيم رحمة الله عليه حادثة لطيفة، حين اجتمع إبراهيم بن أدهم العالِمُ العارفُ بالله بشقيقٍ البلخيِّ العالِمِ العارفِ بالله في الحجّ في صحن الطواف، وهما يتجاذبان الحديث في عبادةٍ علمية – فليست العبادة عند الكعبة المشرفة تنحصر في الطواف أو الصلاة، فالعلم من

أعظم القربات – فقال إبراهيمُ لشقيقٍ: على أيِّ أصلٍ أصَّلْتُم سَيركم؟ أي ما هو ميزان صدق السالك السائر في طريقكم على أصولكم؟

قال شقيق لإبراهيم بن أدهم: إذا رُزقنا أكلنا، وإذا مُنعنا صبرنا.

فأجابه إبراهيم: هكذا تفعل كلاب بلخ، ما الذي يُميِّزكم؟!

قال شقيق: يا أستاذنا، فعلى أي أصلٍ أصَّلْتُم سَيركم ونهجكم؟

قال إبراهيم: إذا رُزقنا آثرنا، أي أعطينا ما لدينا في باب الإيثار، وإذا مُنعنا شكرنا وحمدنا.

قام شقيق وقال: أنت أستاذنا يا سيدي.

– ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ مهما كان إنفاقُك صغيرًا فإنه معتبرٌ عند الله تبارك وتعالى.

– ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ حتى لو انحصر جُهدهم في قطع وادٍ في سبيل الله، وكم يستغرق قطع الوادي؟!

فاختصر جهدين: جهدًا ماليًّا مهما قلَّ، وجهدًا بدنيًّا مهما قلّ، ليُنبِّه: حتى لا يتخلَّف أصحاب الصدق عن أحد الجهدين مهما كان صغيرًا.

– ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

الدرس في تبوك، هذا الدرس الشعبانيُّ، درسٌ لا تتَّسع الساعات لمضموناته، لكنها مناسبةٌ زمانيَّةٌ نأخذ منها لقلوبنا قبل أن ندخل في درس رمضان، لعلنا نصدق في وجهتنا، ومقصودِ قلوبنا إلى الله.

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.